

أدب الأطفال العربي، ودوره في تلبية حاجاتهم النفسية

د. إيمان الشاويش

دكتوراه أدب ونقد حديث،

الجامعة الأردنية، عمان

المقدمة

يتناول هذا البحث أثر القصة في تلبية الحاجات النفسية لدى الأطفال، وقد اهتمت العديد من الدراسات والنظريات التربوية بفئة الأطفال والناشئة، وكيفية تربيتهم وتوجيههم وتلبية احتياجاتهم المختلفة. ومن جهة أخرى فقد كان لأدب الأطفال دور كبير في غرس القيم الأخلاقية والتربوية، ومساعدة الأطفال في تجاوز العديد من المشكلات الاجتماعية والنفسية. ويمكن أن نلاحظ تطوراً كبيراً واهتماماً ملحوظاً في أدب الأطفال العربي في القرن الحالي مقارنة بالفترات الزمنية السابقة، فقد نشط التأليف في شتى فروع أدب الأطفال كالقصة والرواية والقصيدة وغيرها. كما برز دور العديد من المؤسسات العلمية والثقافية في تحفيز الكتابة للأطفال، وعمل مسابقات وجوائز دورية ساهمت في رفد حقل الكتابة الأدبية للأطفال بصورة لافتة.

ولا يخفى على أحد دور القصة وأهميتها في تلبية حاجات الأطفال المختلفة، كحاجة التوجيه والحب، والحاجة إلى النجاح، والحاجة إلى الاستقلال، والحاجة إلى التقدير الاجتماعي، وبناء على هذه الحاجات المختلفة تتمي

القصة جوانب النمو عند الطفل من الناحية العقلية والاجتماعية والنفسية والمعرفية، كما تتمي القصة لديه القدرات العقلية المختلفة، مثل: التذكر، والتخيل والتفكير، والتحليل والنقد، والقدرة على حل المشكلات، كما أنها تعرف الطفل بمجتمعه ومقومات هذا المجتمع وأهدافه ومؤسساته، وله أثر بالغ في تنمية الجوانب النفسية عند الطفل في هذه المرحلة؛ لما فيها من الحوار والتأمل في النفس والقذوة الحسنة، كما تسهم القصة في ترقيق العواطف والوجدان وتنمية المشاعر والإحساس، تخفيفاً من التوترات الانفعالية، وتخليص النفس من الانفعالات الضارة، وتكوين الميول والاتجاهات^(٢).

لقد دخل أدب الأطفال في عصرنا الحالي في صميم عملية تنشئة الأطفال بجميع أبعادها: الاجتماعية، والسياسية، والفكرية، فهو بما يحمله من اتجاهات ومضامين يؤثر في سلوك الأطفال، ويسهم في بناء شخصياتهم. لهذا يضطلع أدب الأطفال بوظائف كبرى في عمليات التنمية الثقافية والاجتماعية والسياسية^(٣).

وربما قد يكون من يتوجه إلى مرحلة الناشئة بالكتابة قلة، ممثلاً بما نشهده على الساحة العربية، فهو عبارة عن محاولات محدودة، مقارنة بنظيرها من الكتابات الأدبية الأخرى. وإن كانت هذه المرحلة تتسم بالصعوبة والحساسية كما هو شائع، فإن هذا الأمر أدعى إلى الاعتراف بها ومخاطبة من ينتمي إليها؛ لأنه قد يضطر طفل هذه المرحلة إلى قراءة كل ما يقع تحت يديه، وقد

يقرأ ما لا يتمكن من فهمه؛ لذلك لا بد من التنبيه إلى أن خطورة هذه المرحلة ودقتها تقتضي شحداً للاهتمام بها، مما يترك أثره الفاعل في مساندة الناشئة على اجتياز هذه المرحلة الانتقالية بسلام^(٤)؛ وبذلك يسهم هذا الأدب في التربية النفسية والاجتماعية والثقافية بصورة سليمة.

إنّ لهذه الفئة العمرية خصوصيتها فيما يقدم لها من أعمال أدبية، بالنظر إلى حاجاتها ومستويات نمائها المختلفة، فضلاً عما تتمتع به من حساسية حادة في مسألة تقبلها أو رفضها لما يوضع بين يديها لمطالعتها^(٥).

ومن الضروري أن يكون الأدب الموجه للطفل خاضعاً لمستواه ومتناسباً مع الفئة العمرية؛ لأن النص الأدبي يخاطبه؛ وبالتالي من الأنسب أن يكون محكوماً بثقافته وعمره ووجدانه وبيئته^(٦). وهناك من يرى أنه "لا فائدة على الإطلاق من محاولة كتابة رواية مراهقة ما لم تكن: أولاً أنت نفسك مراهقاً يمكن أن تتكلم بثقة، أو ثانياً ما لم تكن على صلة يومية بالمراهقين، أباً أو معلماً أو باحثاً اجتماعياً أو طبيبياً نفسياً؛ وبهذا تكون مطلعاً على لغتهم ومشكلاتهم ومعضلاتهم، وتعقيدات مرحلة المراهقة في الوقت الحاضر"^(٧).

مشكلة الدراسة

ظهر الاهتمام بأدب الأطفال واليا فعين العربي متأخراً في مجال الدراسات الأدبية والنقدية. وما زالت الكتابة في مجال أدب الأطفال العربي لا تقارن بنظيرتها في الثقافات الأخرى؛ لذا يعنى هذا البحث بتسليط الضوء على واقع أدب الأطفال العربي، والاهتمام بنماذج من الإبداع الأدبي الموجه لفئة

الأطفال، ودراسة القضايا التي تعالجها والتشكيل الأدبي الجمالي الذي قدمت من خلاله.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة في عدد من النقاط، منها:

- ١- تسليط الضوء على أدب الأطفال العربي وواقعه الحالي.
- ٢- رقد الدراسات النقدية في مجال أدب الأطفال العربي.
- ٣- بيان بعض الأسباب والعوامل في تطور أدب الأطفال.
- ٤- توضيح أهم التحديات والصعوبات في مجال أدب الأطفال.
- ٥- بيان دور الإبداع الأدبي في تلبية بعض الاحتياجات النفسية لدى الأطفال.

أسئلة الدراسة

تطمح هذه الدراسة للإجابة عن عدد من التساؤلات، منها:

- ١- ما الرؤية المستقبلية لأدب الطفل العربي في ضوء معطيات الواقع؟.
- ٢- هل يمكن لأدب الأطفال أن يكون مسانداً في برامج التأهيل النفسي للأطفال؟.
- ٣- ما مدى تلبية أدب الأطفال العربي لحاجات الأطفال واهتماماتهم؟.
- ٤- هل استطاع أدب الأطفال العربي أن يصل في قيمته العلمية والأدبية إلى النتائج العالمي؟.

رواية (مصنع الذكريات)^(٨)

تتناول هذه الرواية حكاية (جابر)، ذلك الفتى الذي فقد أمه، فواجه أزمة واضطراباً في تقبل هذا الواقع الجديد الذي تحل فيه امرأة أخرى مكان أمه، ويشعر أنه غير قادر على التواصل بصورة سليمة مع والده. لكن بمساعدة أصدقائه ورعاية والده وجدته يدرك جابر أن الفقد لا يعني انتهاء الذكريات، فطالما نملك ذاكرة عن الأشخاص والأشياء التي نحبها ستبقى حية فينا أبداً. وقد تدرجت الرواية في إعادة التوازن النفسي للفتى جابر، ويمكن تقسيمها إلى المراحل الآتية:

أولاً - مرحلة الاعتراف بالألم، ومواجهة المشكلات

تجعل هذه المرحلة من تقبل هذه مشاعر الحزينة أمراً قادراً على التجاوز، فبمواجهة الأحران والمشكلات يصبح الطفل قادراً على تحمل الحقيقة المؤلمة دون الهروب منها أو تجاهلها بطريقة سلبية. وأول ما يجعل الفتى جابراً قادراً على مواجهة مشكلاته هو استعادة ذكرى مرض والدته، ومقاربتها على الوفاة. إذ يقول:

"عندما مرضت أمي، ضمت يدي في كفها وشدت عليها رغم إعيائها، وعددت لي ما استطاعت من أسماء الأهل وأفراد العائلة والأصدقاء، بدءاً بأبي وجددي وعمتي... لكنني ظللت أشعر، رغم هذا العدد الكبير من الناس، بأني وحيد بلا أحد إذا هي ذهبت"^(٩).

إنّ شعور جابر بالوحدة بعد وفاة والدته على الرغم من وجود الكثير من الأحياء هو أمر طبيعي، لكن الرواية تعمل على جعل هذه المشاعر الطبيعية تبقى في سياقها المقبول، ولا تتجاوزه إلى الحد غير الطبيعي.

كما ركزت الرواية على ضرورة فهم مشاكل الذات، ومحاولة حلها بطرق صحيحة. فجابر يريد أن يتعلم كيف يملك نفسه عند الغضب. "قال لي منصور وعدلي ورافيا: نحن نرفع أصواتنا أحياناً عندما نغضب... المهم أن يكون صراخك بمعيار. لم أعرف معنى المعيار... لم يشرح لي جدي كيف أملك نفسي... قالت لي رافيا بكلّ جدية: لا تخش شيئاً... سأعلمك."^(١٠) إنّ التأمل كعلاج للانفعال النفسي الذي تتصف به مرحلة المراهقة، ومحاولة فهم طبيعة هذه المرحلة، وكيف تؤثر فيها الظروف والعوامل، ومحاولة التعامل معها بمرونة، يجعل من المشكلات أو العقبات التي تواجه الطفل أخفّ وطأة. لقد عانى جابر بسبب زواج والده من امرأة أخرى ظاناً أنّ والده قد نسي أمه. وتكسر الرواية الصورة النمطية لزوجة الأب؛ فقد كانت زوجة والده عطوفة عليه، وقد اتضح له ذلك أكثر بعد أن تقبلها، وأعطاهها فرصة كي يفهم شخصيتها أكثر.

يقول جابر مستعيداً ذكرى زواج والده: "ذكرى صورة أبي على اللوح مع امرأة أخرى، غير أمي، بثوب أبيض تتطبع في رأسي"^(١١). "فتحت ملفاً لذكريات رنا، المرأة التي حلّت محلّ أمي غزالة، وملفاً لذكريات كريم، وللجرو الصغير الذي حلّ محلّ إخوة كنت أنتظرهم"^(١٢). "...كُتبت أول ذكرى عن رنا:

لا تصنع العدس على طريقة أمي، لكنّ طعمه جيد. كتبت أول ذكرى عن كريم: يبكي كثيرًا، ويضحك أحيانًا، خذاه مثل تفاحتين" (١٣).

ثانيًا - التعلم وتعديل السلوك من خلال الأقران

تبرز رواية (مصنع الذكريات) الدور المهم الذي يلعبه الأصدقاء في حياة بعضهم بعضًا، فوجود الأصدقاء هو أمر صحي يقود الطفل إلى التعلم بالمحاكاة أو بالابتكار والاستلها من سلوك الأقران.

لقد وجد جابر نفسه في صحبة بناءة، ينصح كلُّ صديقَه ويحاول تقديم يد العون له... فيقول واصفًا صداقتهم:

"...إلا أن هذا الاعتياد لم يمنعنا من انتقاد بعضنا بعضًا. وانسجامًا مع قانون الحياة، فلا يمكن أن نظل كما ولدتنا أمهاتنا دون تغيير يذكر. أنا مثلًا، لم يكف ثلاثتهم عن محاولة أن يعلموني كيف أصبح شخصًا أكثر مرونة... ابتمت رافيا قائلة: وقد تذهب لتشتري البطاطا الحلوة لجذك "عبد السلام"، مع أنك لا ترغب في ذلك، ثم تشويانها في النار... هذا نوع من المرونة أيضًا!" (١٤)

إنّ فهم شخصية الأصدقاء يقوي من أواصر الصداقة حيث يدرك كل طفل الطبيعة المختلفة لكل صديق؛ وبالتالي يتعلم الأطفال حقيقة الاختلاف وضرورة التعايش.

رافيا (الحنونة)، منصور (الحكيم)، عدلي (صانع المقالب)، جابر (مراقب الطبيعة) و(صانع الذكريات)... هذه كانت أعمالنا. كنت أظن أنّ من

حقّ الأصدقاء معرفة كل شيء عن أصدقائهم، لكنني في نفس الوقت كنت أعتقد أنّ لدى كل واحد فينا سرّاً يبقيه مخبأً بين صفحاته الداخلية.."(١٥).

أما منصور صديق جابر الذي سجن والده في سجون الاحتلال الإسرائيلي فقد خشي أن ينسى صورة والده التي غيبتها الاحتلال. يقول جابر: "حدثني عن صعوبة صناعة الذكريات عن أبيه الذي لم يزره في السجن منذ عامين، فقد منعه الاحتلال من زيارته؛ لأنه ما زال لا يحمل هوية. حاولت أن أخفف عنه بقولي: سواء أحملت هوية أم لم تحمل، هناك دائماً حجة كي يمنعوك. قال: أخشى أن أنسى صورة أبي. فرأيت صورة الحكيم عندما يحزن، فأجبتة بسرعة: إنّ القاعدة الأولى في صناعة الذكريات هي مقاومة النسيان. اكتب له الرسائل بشكل يومي. حدّثه عن كلّ شيء بالتفصيل"(١٦).

إنّ مشاركة الهموم والمشكلات مع الأصدقاء يشكل متنفساً يساعد الأطفال على تجاوز أحزانهم أو على الأقلّ التقليل من حدّة وطأتها. وقد ظهر ذلك بين جابر وأصدقائه في العديد من مشاهد الرواية.

ثالثاً - الذكريات كداعم ومحفّز

ركزت الرواية على أهمية امتلاك الفرد للذكريات، وضرورة التعايش مع الحاضر بمنطقية... فمن خلال ذكريات جابر عن أمه يزيد ذلك من ثقته بنفسه، ويشبع عواطفه. "لو كانت أمي غزالة حية لاكتفيت بأكل الكعك. هذا ما يحدث مع الأطفال الذين يفقدون أمهاتهم. فكّرت لو أن باستطاعتي أن أعلم كل الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم صناعة الذكريات...."(١٧).

ويقول: "ركزت تفكيري، فانتشرت ذكريات الرائحة؛ رأيت أُمي غزالة في الشتاء البارد، تحملني على صدرها، وتحرك العدس في القدر؛ فتدخل في أنفي روائح الكمون والبصل والجزر والكوسا والثوم..." (١٨).

"كنت أتذكر قوالب المعمول التي كانت أُمي تضع فيها عجينة الطحين والسميد المحشوة بالتمر والفسق الحلبي ولوز... قوالب على شكل قلوب حب، وقوالب على شكل نجومات، وقوالب على شكل ورود... أكثر ما أحتاجه، ذكرياتي عن أُمي غزالة التي لولاها ما احتجت إلى مصنع الذكريات. لو كانت أُمي غزالة حية لاكتفيت بأكل الكعك. هذا ما يحدث مع الأطفال الذين يفقدون أمهاتهم..." (١٩).

"قال جدي: يا بني، كل هذا سيصبح ذكريات. حضنتني جدي، فشممت رائحة كوفيته وعباءته، وسحت دمعة من عينيه على كفّ يدي، وكنت أعرف أنها ستصير ذكريات هي الأخرى. منذ رحيل أُمي، تعلمت كيف تصنع الذكريات" (٢٠).

وهكذا يشكل (مصنع الذكريات) الذي تخيله جابر وأصدقائه رافداً قوياً لاستعادة الأطفال لحيوتهم النفسية، ولنشاطهم الجسدي، من خلال اللعب، والتعلم، وتغذية الخيال، حيث شكلت (لعبة الذكريات) ميداناً رجباً للتأمل وشفاء الذهن وتطوير الذات.

الخاتمة

لقد سعى هذا البحث للكشف عن دور أدب الأطفال في تلبية الحاجات النفسية للأطفال من خلال رواية (مصنع الذكريات)، للكاتبة أحلام بشارت، وقد بيّنت الدراسة أهمية القصة في مساعدة الطفل / اليافع في مواجهة مخاوفه ومشكلاته، وقدرتها على مساعدته في تجاوز الأزمات النفسية من خلال تدريبه على الخيال الخلاق والتعامل مع الواقع بمرونة وعفوية. كما بيّنت الدراسة أهمية اللعب مع الأقران لتطوير الشخصية والسلوك وقدرة الطفل وسهولة استجابته للتعلم من أصدقائه. وقد عنيت الرواية بالدور الكبير الذي تلعبه الذكريات كمحفز للطفل لمواجهة أحزانه ومشكلاته النفسية والاجتماعية.

الهوامش:

(١) أحلام بشارت : كاتبة وشاعرة فلسطينية، ولدت عام ١٩٧٥ في قرية طمون في الأغوار، ومدربة متخصصة في مجال الكتابة الإبداعية. لها مؤلفات في القصة القصيرة، والكتب المصورة والروايات والمذكرات. تعتبر أحلام بشارت إحدى أبرز الأسماء المنتجة في أدب اليافعين والقصة القصيرة في فلسطين، ففي رصيدها أربع روايات لليافعين وعشرات من قصص الأطفال ومجموعتان قصصيتان. وقد نالت بشارت اهتمامًا كبيرًا بعد إصدارها رواية (اسمي الحركي فراشة)، وهي رواية موجهة لليافعين وصلت إلى قائمة أهم مئة كتاب لليافعين في العالم عام ٢٠١٢، وأعيد طباعة الرواية باللغتين: العربية، والإنجليزية. بدأ مشوار بشارت في الكتابة المحترفة عام ٢٠٠٥، علمًا بأنها تمتعت بهذه الموهبة منذ المرحلة الأساسية في مدرستها، فكانت تؤلف القصص وترسم لها سردًا بصريًا موازيًا للنص، فملكت المهارتين بعمر

صغير. <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

(٢) آسيا خليفة الجري، القصة السيكودراما وأثرها على الطفل، ص ٥٠.

(٣) رحي عليان: أدب الأطفال، ص ١٨.

(٤) رزان إبراهيم: إشكاليات ورؤى نقدية في قصص الأطفال، ص ١٠٦.

- ٥) إبراهيم الكوفحي: أدب الأطفال والناشئة، قراءة في نماذج من القصة والرواية، ص ٨.
- ٦) موفق مقدادي: البنى الحكائية في أدب الأطفال، ص ١٠٢.
- ٧) جون آيكن: مهارة الكتابة للأطفال، ص ١٦٨.
- ٨) رواية (مصنع الذكريات) كتاب من القائمة النهائية لجائزة اتصالات لكتاب الطفل، للعام ٢٠١٨.
- ٩) مصنع الذكريات، ص ١٠.
- ١٠) مصنع الذكريات، ص ١٧، ١٩.
- ١١) مصنع الذكريات، ص ٦١.
- ١٢) مصنع الذكريات، ص ٦٢.
- ١٣) مصنع الذكريات، ص ٦٣.
- ١٤) مصنع الذكريات، ص ١٤.
- ١٥) مصنع الذكريات، ص ١٦، ١٧.
- ١٦) مصنع الذكريات، ص ٦٣.
- ١٧) مصنع الذكريات، ص ٤٨.
- ١٨) مصنع الذكريات، ص ٦٠.
- ١٩) مصنع الذكريات، ص ٤٧، ٤٨.
- ٢٠) مصنع الذكريات، ص ٤٧.

المصادر والمراجع:

- ١- آسيا خليفة الجري: القصة السيكودراما وأثرها على الطفل، مصر: جامعة عين شمس، ع ١٧٨، ص ٥٠.
- ٢- إبراهيم الكوفحي: أدب الأطفال والناشئة، قراءة في نماذج من القصة والرواية، عمان: المكتبة الوطنية، ط ١. ٢٠٢٠م، ص ٨.
- ٣- أحلام بشارت: مصنع الذكريات، عمان: دار السلوى، ط ١. ٢٠١٨.
- ٤- جون آيكن: مهارة الكتابة للأطفال، ترجمة: يعقوب الشاروني وسالي راجي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط ١. ٢٠١٢م، ص ١٦٨.
- ٥- رزان إبراهيم: إشكاليات ورؤى نقدية في قصص الأطفال، عمان: الدار الأهلية للنشر، ط ١. ٢٠٢٠م، ص ١٠٦.
- ٦- موفق مقدادي: البنى الحكائية في أدب الأطفال، الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط ١. ٢٠١٢م، ص ١٠٢.